دروس من ثورة
يمن الإيمان والحكمة

بقلم

الشيخ حسام عبد الرؤوف



الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين؛

من بين ثورات ما يُسمَّى بـ"الربيع العربي" برزت الثورة اليمنية بالزخم والتواصل والإصرار على تحقيق المطالب، فلم تنقطع حبالها، وتتفرَّغ لاجترار ما تحقَّق، وتستسلم للمخطَّط الذي تريده قوى "المركز" بقيادة الولايات المتحدة لإدخال الشعوب المنتفضة في دوَّامةٍ وحشرها في ركنٍ لا تجد أمامها فيه مفرًّا من الانسياق وراء الخطوات التي تحدِّدها إمَّا قيادة المجلس الثوري الانتقالي -وهم صنيعة الغرب والبديل الأسوأ-، أو قيادة الجيش التي لا زالت تمسك بزمام الأمور بسبب الضبابيَّة التي تحيط بها والهالة التي افتُعلت حولها، فحوَّلتها من أداة قمع وتوطيد أركان النظام البائد فارتكب كل جرائمه، إلى صمام الأمان والحافظة للأمن ومقدَّرات وممتلكات الأمة!!

ولهذا وجدنا أنَّ أول ثورتين اشتعلتا في المنطقة وكانتا الشعلة التي أوقدت نيران بقيَّة الثورات -ونعني بهما في تونس ومصر- قد دخلتا في نفقٍ مظلمٍ ولم تتخطَّيا مرحلة "ارحل" -أي التخلص من رأس النظام فقط-، ثم استسلمتا لما يُملَى عليهما من قرارات، والسير في خطوات لا تغيِّر في واقع الأمر شيئًا، بل ربما زادت الأمر صعوبةً وتعقيدًا، ولعلها قد تدفع الشعبين إلى الكفر بما يسمى بـ"الأحزاب الإسلامية المعتدلة" التي ارتضت بالخوض في لعبة الديمقراطية والانتخابات النيابيَّة، بل ربما بالكفر بحاكمية الإسلام وصلاحيَّته لتأمين الحياة الحرة الكريمة الآمنة لهم في الزمن المعاصر، وذلك حين تصحو تلك الشعوب على الحقيقة المُرَّة بأنَّها قد سلَّمت الراية لمن لا يقدر على تحقيق أي شيء من مطالبها، وأنَّ تولِّي هؤلاء للسلطة لم يزد شعوبهم إلا رهقًا، والأمور إلا تعقيدًا.

ولقد سبق للنظام اليمني -بالذات- أن أعطى للشعوب العربية دروسًا في عدم الاعتماد على الأحزاب الإسلامية الرسمية أو الراغبة في انتهاج الأساليب السلمية الديمقراطية، واستغل أتباع تلك الأحزاب كمطيَّة لتحقيق أهدافه والسيطرة الكاملة على اليمن بشماله وجنوبه، وعلى السلطة دون منازع، وذلك عندما سمح للتجمع اليمني للإصلاح وبقيَّة الأحزاب التي على شاكلته، بخوض الانتخابات البرلمانية

والحصول على زعامة المجلس النيابي وعدد كبير من المقاعد، وتكليف قادة التجمع بتولِّي مناصب وزارية فاشلة -غير سياديَّة أو شبه سياديَّة- خاصة التي لها علاقة مباشرة بالجماهير، واتباع سياسة قبض اليد عن تلك الوزارات، وبالتالي حدوث الاصطدام المباشر بين الجماهير وقيادات تلك الوزارات، ومن ثمَّ ظل التجمع اليمني يتراجع في القوة وعدد المقاعد من انتخابات لأخرى حتى فقد كلَّ قوته، وهيمن حزب الرئيس وأفراد أسرته وقبيلته والمقرَّبين منه في المقابل على كل مقاليد السلطة السياسية والاقتصادية والإعلامية والقضائية والعسكرية والأمنية، وهو ما يدفع الشعب اليمني المسلم ثمنه غاليًا الآن.

ولقد سبق الشعب اليمني المسلم -رغم انخفاض نسبة التعليم بين سكانه وارتفاع نسبة الفقر والجوع بينهم، إذا قورن ببقيَّة الشعوب العربية الثائرة، وافتقاد معظم المتطلبات الأساسية للحياة اليومية- سبق الشعبين التونسي والمصري وقطع شوطًا كبيرًا من مرحلة "إسقاط النظام" ومرحلة متقدِّمة من "إسقاط الهيمنة"، نتيجة تضامن القوى الاجتماعية الفاعلة والنقابات والطلبة والمؤسسات الحكومية وشبه الحكومية مع شباب الثورة في الميادين، وبدأوا في حملة تطهير لمعظم مؤسسات الدولة من العناصر الفاسدة الموالية لعلي عبد الله صالح، والآن يضغطون بكل قوة لإزالة رموز النظام السابق وأقارب الرئيس المخلوع من القيادة في مختلف أفرع الدولة، والمطالبة بإعادة هيكلة أجهزة الأمن والجيش للتخلُّص من هؤلاء جميعًا، والمؤشرات تدلُّ على نجاحهم في نهاية المطاف بإذن الله، ولكن ذلك يتطلَّب اليقظة لمواجهة ألاعيب الإدارة الجديدة، والإصرار على الضغط الشعبي من خلال الميادين، وفي كل المصالح الحكوميَّة والتعليميَّة والصحيَّة والنقابات وغيرها.

وبهذه المناسبة نقول للمدعو عبد ربه منصور هادي "الرئيس المزعوم"، أمسك عليك لسانك، ولا تتقمص شخصية الأسد الذي يزأر ويزمجر بعد أن كنت قبل أيام معدودة فأرًا، فالكرسي أوسع عليك بكثير، والقاعدة "قاعدة" على قلبك وقلوب من وضعوك في هذا المكان -بإذن الله-، ولئن كان سلفك -رغم ما كان فيه، ورغم الدعم العالمي له في مواجهة القاعدة- قد فشلوا وارتدوا على أعقابهم خاسرين، فهل تستطيع أنت بعد أن صار نظامك المتهالك مهيض الجناح

أن تُوقف الزحف الإسلامي القـادم في اليمن؟! هيهـات هيهـات.. فالله سبحانه وتعالى لكم بالمرصاد، ومتمٌّ نوره وناصر أوليائه.

ولئن كان علي عبد الله صالح قد عاد مجبورًا من الولايـات المتحـدة لأنَّه صار كالأجرب الذي ينفر منه كلُّ الناس، وتنكَّبت له الأرض رغم كل محاولاته المستميتة للتشبُّث بالسلطة أو الخروج منهـا بشـكل مشـرِّف أو ضمان عدم المساءلة لإنقاذ نفسه وعائلتـه وأقاربـه وأربـاب نظامـه، ولكن الله أراد أن يذلَّه في الدنيا قبل أن ينال جزاءه الذي يسـتحقه في الآخرة، وسيبقى يتجرَّع الحسـرات على ضـياع جهـوده طـوال أكـثر من ثلاثـة عقـود في خدمـة أسـياده وخيانـة أمَّتـه من أجـل الحفـاظ على الكرسيّ وتوريثه لخليفته المرضيّ ثم ذهب كل ذلك هباءً منثورًا.

ولقــد اضــطرت الولايــات المتحــدة إلى إجبــاره على التنــازل عن السلطة والعودة لليمن حتى لا تقطع الحبال بينها وبين الشعب اليمـني، ليلقَى مصيره الذي يستحقه: إمَّا القتل ليلحق بالقذافي في سقر -بإذن اللـه-، أو المحاكمــة والــدخول في قفص الاتهـام ممـدَّدًا على السـرير بدعوى الحالة الصحية كما يحدث مع فرعون مصر الحديث، ولن تشــفع له عندها لا الولايات المتحدة ولا بريطانيـا ولا الاتحـاد الأوروبي ولا حكَّام الخليج الذين حاولوا إنقاذه بمبادرتهم المشئومة إلا أنَّهـا كـانت القاضـية عليه إن شاء الله، فقـد تنـازل طوعًـا وكرهًـا عن عرشـه ظنًّا منـه أنَّهم سـينفعونه ويلـتزمون بحمايتـه وإيوائـه ليسـتمتع بقيـة عمـره بـالأموال الحـرام الـتي نهبهـا من الشـعب اليمـني، وهي -كالمعتــاد- بعشـرات المليارات، رغم أن الشـعب اليمـني من أفقـر شـعوب العـالم! وعنـدما يموت أو يُقتَل فلن يدفن في المسجد الذي بناه باسمه وكلَّفه أكـثر من ستين مليون دولار، وإنما سيُرمى -كمـا فُعـل مـع القـذافي- في مقـبرةٍ سرِّيَّةٍ مجهولةٍ منسيَّة، أو في مقبرةٍ علنيَّةٍ ليُرجم قبره كمـا يـرجم قـبر أبي رغال، وهذا هو جزاء الخونة والعملاء على مرِّ التاريخ.

ولعــلَّ مــا يحــدث في اليمن يكــون فرصــة سـانحة أخـيرة لخَدَمِـه وحاشيته والمنتفعين من عهده المشئوم أن يثوبوا إلى رشـدهم ويتوبـوا إلى ربِّهم، ويعـترفوا بـذنوبهم وجـرائمهم، والعـودة إلى جـادَّة الصـواب، والاندراج تحت قيادة الشباب الثائر لإعادة الشـعب اليمـني الكـريم إلى الحيـاة والعـزَّة والكفايـة الـتي يسـتحقها بعـد تلـك التضـحيَّات الغاليـة، والحـذر من أن يكونـوا كمن قـال اللـه عـز وجـل فيهم: {لَهُمْ قُلُـوبٌ لَا

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا}، ويصرُّون على السباحة ضدَّ التيار الهادر الذي سيقتلع ويجرف جميع المفسدين بإذن ربِّ العالمين.

وفي المقابل؛ فإن أكثر ما يثير الإعجاب والتقدير لشباب ورجال اليمن هو ذلك الانضباط الذي التزموه منذ بداية الثورة وحتى الآن مع أنَّهم بالملايين، فرغم امتلاكهم للسلاح، والشدائد التي واجهوها، والاستفزازات المستمرة من عملاء النظام الطاغي وقوات الردة، والتي أسقطت منهم مئات الشهداء، رغم كل ذلك لم يخرجوا عن طورهم فيسفكوا الدم الحرام أو يعتدوا على الأعراض أو يسعون بالإفساد؛ فيدمروا الممتلكات والمنشآت العامة والخاصة! ومع أنَّنا نحيي فيهم هذه الروح ونشدُّ على أيديهم وندعو لهم، إلا أنَّنا نذكرهم أن الحكمة وضبط النفس والدعوة للتآلف ومراعاة القبلية والمصلحة العامة كلها أمور مطلوبة وواجبة، ولكن بشروط أهمها ألا تُنتهَك حرمات الله من أعداء الدين ونكتفي بالتظاهر والاعتصام أو بـ"الغضب العاقل" لا "الغضب المتهور" كما قاله شيخ مرجئة هذا الزمان، وألا يطغى الظلم والفساد من أيِّ جهة كانت، وألا يتوارى أنصار الحق وينتفش الباطل، وأن يكون تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية هو غاية ثورتهم لأنَّها مفتاح السعادة في الدارين، والحامية للحقوق والضامنة للحرية والعدالة.

والنقطة المطلوبة على وجه السرعة هي حسن اختيار ممثِّليهم والمتحدثين باسمهم، وتوحيد الصف، والاتفاق على قيادة واعية مخلصة لدينها وأمَّتها وعلى كلمة سواء تجاه كل القضايا التي أعلنوا من البداية أنَّها من أهداف ثورتهم المجيدة، وعدم تكرار ما حدث في مصر -خصوصًا- حيث فقد الشباب الثائر قدرته على تحريك الجماهير بسبب عدم ظهور قيادة موحَّدة واعية صلبة للتفاوض باسمهم وفرض مطالبهم، وبعد أن نجح المجلس العسكري الحاكم في الفصل بينهم وبين القاعدة العريضة من الجماهير تحت ضغط الأزمة الاقتصادية والأمنية المتعمدة، وفي نفس الوقت اتباع سياسة "العصا والجزرة" معهم، فمن أراد منهم خدمة الشعب فعليه باتباع السبل السلمية والديمقراطية المزعومة، ومن تعدَّى ذلك ولجأ للتظاهر والاعتصامات فالضرب بالقنابل المسيلة للدموع والمطاطية والرصاص الحي ثم إلقاء

اللوم على الشباب في تـدهور الأحـداث وسـقوط القتلى والجـرحى، أو إلقـاء التبعـة من قِبَـل المجلس العسـكري والأجهـزة الأمنيـة كـلٌّ على الآخر، والخاسر هم الشباب وثورتهم، بل الشـعب المصـري الـذي دفـع الثمن غاليًا -ولا يزال-.

الخلاصة: المطلوب هو الاستمرار في الضغط الشبابي والجمـاهيري لاستكمال مرحلـة "إسـقاط الهيمنـة" للنظـام البائـد، وهـو جهـد يتطلّب تضافر جهود الشعب اليمني؛ خاصَّة القوى الجهادية؛ الـتي أقـدمت حين أعرض الناس، وضحَّت بدمائها وقادتهـا ودنياهـا حين أحجم النـاس، فهم أولى الناس بقيادة الرَّكب، وتصحيح المسار، وتوحيد الصفوف، والصَّدع بكلمة الحق مهما كانت التبعات والتحديَّات، فعليهم الالتحـام بالجمـاهير وأن يكونـوا نبض أفئـدتهم، ومن أبـرز المتحـدثين باسـمهم، وأن يجلـو حقيقة دعوتهم وجهادهم لعامة الناس حتى لا ينجح أرباب النظـام البائـد وسدنة هيكل الديمقراطيـة المزعومـة من زرع الشـقاق بين الفـريقين، ودق إسـفين بينهمـا، فكلا الطـرفين مكمِّلٌ للآخـر، ولا غـنى لـه عنـه. فالنظام الحالي لن يسقط إلا بالتلاحم بين جميع فئات الشعب والضغط الجماهيري في الميدان من ناحية، ومن ناحية أخـرى الضـغط الجهـادي المتواصل والمتصاعد، لإجبـار فلـول النظـام من العسـكريِّين والأمـنيِّين من النفـاد بجلـودهم، والانسـلاخ من الخدمـة لأنَّ حيـاتهم أعـزُّ عنـدهم وأغلى من الـراتب والـدفاع عن نظـام يعلمـون هم قبـل غـيرهم، مـدى تجبُّره وتسلُّطه وفساده وردَّته وعمالته.

والله غالب على أمره، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

